سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه

لفصيلة الشّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل في محكم تنزيله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا ﴾[الفتح:٢٩].

الحمد لله الذي جعل لهذه الأمة قدوة يقتدون بها، ومعلمين يأخذون عنهم العلم والعمل، فله الثناء الحسن أن أقام أعلاما يُرشدون ويشددون ويبينون ويمحضون الأمة النصح وينقلون الخير في الناس بأقوالهم وبأعمالهم، فله الحمد كله وله الثناء كله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد محمدا عبد الله ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من المستنّين بهدي صحابة رسول الله ﷺ، اللّٰهمَّ وأوردنا الحوض المورود معهم ولا تردنا عن ذلك برحمتك وبفضلك يا أرحم الراحمين، اللّٰهمَّ نسألك إقتداءً بأقوالهم وأعمالهم استنانا بآثارهم وعملا بهديهم فإنهم كانوا علىٰ الصراط المستقيم.

هذا وإن موضوع هذه المحاضرة موضوع تربوي مهم، لا للشباب فحسب، ولا للكهول فحسب؛ بل لكل مكلف؛ لأن الوصايا جاءت في القرآن وجاءت في سنة رسول الله ﷺ.

والوصية بعامة يجب أن تكون ممن فقه القرآن والسنة؛ لأن الوصية تعظم إذا كانت من مشكاة الكتاب ومن مشكاة سنة سيد ولد عدنان عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

وأبو الدرداء ﷺ من أولئك النفر القليل من صحابة رسول الله ﷺ الذي لا يعرف كثيرون سيرته ولا هديه ولا ما ذكر العلماء من أقواله، فلقد كان عالما، وانتهىٰ علم الصحابة إلىٰ ستة كان أبو الدرداء ﷺ أحدهم، وكان زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة متجانفا بالكلية عن دار الغرور حيث قال فيما سيأتي بيانه: (لما أسلمت كنت تاجرا، فاشتغلت بالتجارة والعبادة، فما اجتمعت لي فتركت التجارة وتفرغت للعبادة).

وقصته مع أخيه سلمان ﷺ في البخاري وغيره كما سيأتي.

الوصايا وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم مهمة، ولهذا أوصي جميع إخواني بأن يعمروا مجالسهم بذكر الصحابة ﷺ ؛ بذكر هديهم بذكر سنتهم بذكر ما كانوا عليه، إذا جلسوا جلسا فحبذا أن يعمر المجلس بقراءة ترجمة أو ترجمتين من تراجم الصحابة من الكتب المعتمدة، كـ«تذكرة الحفاظ» للذهبي وكـ«سير أعلام النبلاء» له، وكـ«طبقات ابن سعد»، وأشباه تلك الكتب التي فيها ذكر حال الصحابة رضوان الله عليهم.

واليوم كلامنا كثير والعمل قليل، الكلام الذي يخرج من اللسان ويغشىٰ الآذان كثير، ولكن نريد أن ننتقل بروحنا وبحياتنا إلىٰ ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وإلىٰ ما كان عليه التابعون رحمهم الله ورضي عنهم، فإنّ العيش مع أولئك يعطي المرء توازنا في حياته، اليوم ترون الملهيات كثيرة وما يصد

عن الواجبات من المباحات كثير، فضلا عن كونه عما يصد من المحرمات والعياذ بالله، وكثيرون غشوا المباحات حتىٰ حرمتهم فعل الواجبات، وهذا ولا شك يؤول بالمباح إلىٰ أن يكون محرّما؛ لأن وسيلة المحرم ومحرما كما هو مقرر في القواعد والأصول.

العيش مع الصحابة مهم ومفيد في أن ننظر إلىٰ أقوالهم وأعمالهم، ونأخذ الدرس منها، نأخذ ما وراء الكلمات، نعم لم نعش معهم، لم نرهم؛ ولكن الكلمات وراءها أحداث وراءها سيرة وراءها تربية، كلمات الصحابة هي التي خُلّفت لنا، ومعلوم ما خلّف يكفي في التربية ويكفي الدعوة ويكفي في التأثير في الناس لكن إذا انتقل من ظاهر اللفظ إلىٰ ما وراءه من المعاني.

لهذا أدعو الإخوة بعامة إلىٰ أن يعمروا مجالسهم في الدعوات والمزايز أو في اللقاءات أو في المناسبات التي تكون إخوانية؛ يعني مناسبة يلتقي فيها الإخوان، هذه يعمرها في ذكر سيرهم في ذكر أحوالهم لمعرفة ما وراء وصاياهم، ما وراء كلماتهم من العلم والهدىٰ.

ولهذا أوصىٰ ابن مسعود ﷺ وصية عامة بقوله: عليكم بصحابة رسول الله ﷺ، فإنهم أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علوما وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، فاعرفوا لهم فضلهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم.

وثبت أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفس محمد بيده لو أنفق أحدكم ملء أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» يعني نصيف المد.

وهذا ولا شك يحتم الاهتمام بأقوالهم وأعمالهم، وهذا بالعموم من سمات المنهج السلفي الواضح أنه ينقل الناس إلىٰ التلقي عن المصدر المأمون التلقي عنه؛ وهو كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ علىٰ فهم سلف هذه الأمة، وأعلىٰ السلف صحابة رسول الله ﷺ.

لِمَ اخترنا وصايا أبي الدرداء ﷺ؟

لأن أبا الدرداء جاء عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ من وجهٍ مرسل؛ ولكن يذكره أهل التراجم ويعتنون به أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال: «**حكيم أمتي عُوَيْمر**» يعني أبا الدرداء.

وثبت عن عدد من الصحابة أنهم قالوا: **أعقل الناس عويمر**. يعني أبا الدرداء.

فأبو الدرداء ﷺ جمع -بتوفيق الله جل وعلا له- أشياء متنوعة، جمع العقل والحكمة، جمع الكلمات التي فيها التوازن بين العلم والعمل والدعوة.

أبو الدرداء كان مقرئا للناس معلما، لم تكن وصاياه، ولم تكن كلماته ناشئة من توجيه محض؛ بل كان يعاني العلم والتعليم والإقراء، فربما عُدّ له في مجلسه أكثر من ألف وستمائة يقرؤون عليه ويقرئهم القرآن، وكان يجتمع عنده في المجلس الواحد في القرآن أكثر من ألف يقوم عليهم يدور فيقرئ هذا ويقرئ هذا ويقرئ هذا.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ أول من سنّ الحلقة لإقراء القرآن في المساجد أبو الدرداء ﷺ.

وكان أبو الدرداء ﷺ أحد الذين أخذوا القرآن عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لم يقرأ علىٰ غير المصطفىٰ ﷺ، كحال ابن مسعود وحال أبيّ وجمع قليل من الصحابة أخذوا القرآن كاملا عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

إذن فأبو الدرداء مدرسة، ووصاياه تحتاج منك إلىٰ عناية ورعاية، ولهذا أدعو الإخوة الذين لديهم فضل من الزمان والوقت أن يجمعوا هذه الوصايا، وأن يشرحوها بشرح منضبط مع العلم والعمل علىٰ وفق كلام أهل السنة والجماعة وكلام أهل العلم حتىٰ يتأثر الناس بوصايا سادات الأولياء.

أبو الدرداء من هو؟

أبو الدرداء أنصاري خزرجي اسمه عويمر بن زيد بن قيس، ويقال في اسمه إنه عويمر بن عامر، أسلم ﷺ يوم بدر وشهد أحدا والمشاهد بعدها، وفرض له عمر بن الخطاب ﷺ في الشهر أربعمائة، جعله في البدريين لأنه كان يخص لهم ويعطون عطاء يعني الصحابة، والناس في العطاء يعني الصحابة مختلفون بحسب سابقتهم فأعطىٰ البدريين أربع مائة فأعطىٰ عمر أبا الدرداء في البدريين.

قال عنه الحافظ الذهبي في ترجمته:

أبو الدرداء الإمام القدرة، قاضي دمشق، حكيم هذه الأمة، وسيد القراء بدمشق.

وهذه الكلمات الأربع من منصف وهو الذهبي في وصف أبي الدرداء ﷺ ونعته، قال: (الإمام القدوة) وكونه كان إماما قدوة لأنه تصدر لتعليم الناس وإقرائهم القرآن وجمع بين العلم والعمل، وهذه الثلاث هي صفات الإمام القدوة؛ من كان معلما عالما عاملا مقرئا للناس نافعا لهم، فمن جمع بين العلم والعمل والتعليم وبذل النفس للناس كان إماما قدوة.

قال: (هو قاضي دمشق)؛ لأنه ولي القضاء في دمشق، ولما ولي القضاء جاءه الناس يهنئونه، يهنئونه بتوليته القضاء؛ لأن الذي ولاه عثمان، وإذا كان عثمان ولاه القضاء فمعنىٰ ذلك أنه أهل لهذه الأمانة العظيمة لثناء عثمان ﷺ عليه، فجاءوا يهنئونه فلامهم وعتبهم واشتد عليهم، فقال: والله لا أرىٰ أحدا أحق بأن لا يهنىٰ من القاضي إذا وُلّي؛ لأن هذه المسألة عظيمة، إذا ولي القاضي القضاء أو ولي أحد وِلاية أمر صغيرة أو كبيرة فالأمر عظيم وهي أمانة، وقد ثبت عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أنه قال: «**من جُعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين**»، وثبت عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أنه قال: «**القضاة ثلاث قاضيان في النار وقاضي في الجنة**»، وهذا يجعل أهل العلم والعمل يخافون، وإذا ولوا الأمانات وتولوها مع خوف من الله جل علا وحسابه ولقائه فعاملون لا لأجل ثناء الناس ولا لأجل لرؤيتهم ولا لاتباع أهوائهم وإنما فيما يكون بينهم وبين الله جل وعلا.

(حكيم هذه الأمة) هذه الوصف الثالث من الذهبي رَحِمَهُ اللهُ لأنه روي عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أنه قال «**حكيم أمتي عويمر**»، والحكيم هو الذي يوصي بحكمة والوصايا يجب أن تكون موافقة للعلم موافقة لما جاء في القرآن والسنة، قد يكون لقوم كثيرين وصايا يعتنون بها؛ ولكن الوصايا إذا كانت من مشكاة الكتاب والسنة فهي الوصايا المعتبرة.

فلهذا ينبغي علىٰ من يعجبه أحد أن لا يأخذ بوصيته إذا كانت مخالفة للكتاب والسنة، فالبقاء علىٰ وصايا مخالفة للكتاب والسنة، هذا نوع من المخالفة لما أنزل الله جل وعلا، فالوصايا مهمة؛ ولكن يجب أن تكون منضبطة بما جاء في القرآن وفي حديث المصطفىٰ ﷺ.

(سيد القراء بدمشق) لم؟ لأنه قرأ القرآن علىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، وجمع القرآن كله في حياة المصطفىٰ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، وتقدم للإقراء -كما ذكرت لكم- في خلافة عثمان رضي الله عنه بل وقبل ذلك، وهذا التصدر لأنه كان يريد أن يجعل الناس يحملون القرآن بعده، وابن عامر الدمشقي اليحصبي المعروف القارئ كان ممن أخذ القرآن عن تلامذة أبي الدرداء رضي الله عنه.

أبو الدرداء له مقام كبير في الحديث، روىٰ أحاديث كثيرة عن المصطفىٰ ﷺ، وروىٰ جمع من الصحابة جمع كثير منهم أنس بن مالك، ومنهم فضالة بن عبيد، ومنهم ابن عباس، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص، ومنهم أبو أمامة منهم كثير.

أبو الدرداء رضي الله عنه عاش علىٰ البعد عن الدنيا وعاش عن الزهادة فيها تماما، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين بعد ابن مسعود رضي الله عنه وقبل عثمان ابن عفان رضي الله عنهم أجمعين.

من أخباره ومن الثناء عليه مما يسوقكم إلىٰ قراءة ترجمة وإلىٰ العناية بذلك:

أنه كان يقول: كنت تاجرا، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا. فتركت التجارة ولزمت العبادة.

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ آخا بين أبي الدرداء وبين سلمان رضي الله عنهما ؛ سلمان الفارسي، فجاء مرة سلمان فشكت أم الدرداء الكبرىٰ شكت زوج أبي الدرداء إلىٰ سلمان حال أخيه أبي الدرداء، فقالت: إنه يصوم دائما ولا يفطر، وإنه يقوم الليل، وإنه لا حاجة له بأهله، فلما جاء أبو الدرداء قرب له سلمان طعاما، فقال لسلمان: إني صائم. فقال: أقسمت عليك بالله لتأكلن فلم يزل به حتىٰ أكل. فلم فرغ أراد أبو الدرداء أن يقوم فقال له سلمان: نم. فلما أتىٰ الصبح قام فصليا ركعتين، ثم ذهبا إلىٰ المسجد. فقال سلمان لأبي الدرداء: يا أبا الدرداء إن لربك عليك حقا، وإن لبدنك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه.

فلما أتوا النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ فأخبره أبو الدرداء بخبر سلمان فقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «صدق سلمان».

وفي رواية أخرىٰ أنّ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال «**صدق سلمان، إن لربك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا، فأعط لكل ذي حق حقه**».

أبو الدرداء ترك التجارة ولزم العبادة قال أهل العلم: الأفضل الجمع بين الأمرين مع الجهاد، الأفضل الجمع بين الأمرين بين العبادة والتجارة يعني الكسب للنفس وللأهل وللعيال مع الجهاد، قال الذهبي: وهكذا كانت حالة أكمل هذه الأمة أبا بكر الصديق رضي الله عنه؛ فإنه كان يزاول الكسب وكان عابدا صديقا وكان يجاهد في سبيل الله، وهكذا كانت حالة عبد الرَّحمٰن بن عوف، وهكذا كانت حالة ابن

المبارك فكانت عالما عابدا مجاهدا؛ لكن لا يقوىٰ علىٰ ذلك الكثيرون، لا يقوىٰ علىٰ ذلك الكثيرون، فلهذا كل يأخذ بما ناسبه؛ لكن التفرغ للعبادة أو التفرغ للمجاهدة وترك الكسب للأهل للعيال هذا مذموم.

نأخذ من هذا أن ما قد يفعله بعض الناس من أنهم يتركون أهليهم مدة طويلة قد تبلغ أربعين يوما وقد تبلغ أحيانا أربعة أشهر ونحو ذلك، ويتركون أهليهم، ويتركون أولادهم دون كسب ودون رعاية أن هذا مخالفة لما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليه، فالأصل أن لا يضيع المرء من يعول وأن يجعل لنفسه عليه حقا، وأن يجعل لربه عليه حقا؛ لأن الله جل وعلا له الحق، وأن يجعل لأهله عليه حقا فكل أحد يعطيه حقه الذي جعله الله جل وعلا له.

قال أبو ذر ﷺ: ما حملت ورقاء ولا أضلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء. (ما حملت ورقاء) يعني الأرض (ولا أضلت خضراء) يعني السماء؛ لأن الزرقة يقال لها خضرة أعلم منك يا أبا الدرداء، وهذه شهادة عظيمة من أبي ذر وأبو ذر قلَّ ما ما يرضىٰ علىٰ أحد.

وعن مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ وﷺ وهو من سادات التابعين قال: وجدت علم الصحابة انتهىٰ إلىٰ ستة إلىٰ عمر وعلي وأبي وزيد وأبي الدرداء وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وابن عمر روي عنه بإسناد رجاله ثقات أنه كان يقول: حدثونا عن العاقلين قالوا: ومن العاقلان؟ فقال: معاذ وأبو الدرداء. وصدق ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإن معاذا كان أعلم الأمة في الحلال والحرام وكان أعقلها، وكذلك أبو الدرداء ﷺ كان أعقل هذه الأمة.

إذا عرفت ذلك، فخذ شيئا من وصايا أبي الدرداء وشيئا من الدروس والفقه المتعلّق بتلك الوصايا.

من تلك الوصايا أنه قال لرجل جاءه فقال له: يا أبا الدرداء أوصني. فقال:

اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء، وإذا ذكرت الموت فاجعل نفسك كأحدهم، وإذا أشرفت نفسُك على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير.

هذه الوصية الأولىٰ تشتمل علىٰ ثلاث وصايا:

قال (أوصني) وهذا نأخذ أن من هدي السلف أن يطلبوا من علمائهم ومن أهل الفقه والعلم والعمل فيهم أن يوصوهم، وينبغي علىٰ من طلب الوصية أن يبذل النصح كاملا لمن طلب منه الوصية هذه هي الفائدة الأولىٰ.قال (أوصني).

والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال له جمع من الصحابة: أوصني يا رسول الله. قال: «**لا تغضب**»، أوصني يا رسول الله، فقال: «**كف عنك هذا**» وهكذا في عدد منها.

فإذن طلب الوصية مهم، وحبذا أن يكون في كتاب؛ يعني تكتب له فتقول له: أوصني، إذا كان يعرفك، فإنه إذا عرف حالك وفي كتاب يعني في رسالة يعطيك محض النصيحة ويجهد نفسه في بيان ما يناسبك ويخلص لك النصح، وهذا مما ينبغي تعاهده فد كان بين أبي الدرداء وإخوانه مراسلات كثيرة، يعلمها من قرأ ترجمته.

فإذن ينبغي أن نأخذ بهذه الوصية، أن تكتب لأخيك: أخي أوصني، لأن الرسالة لها أثر غير المواجهة، قد لا يواجهك بالكلام، قد لا يواجهك بما فيك، قد يستحيي وتستحيي أنت؛ لكن إذا كان الطلب منك فيما يسددك في أمر دينك، وفي أمر التزامك بالطريق المستقيم والنهج الصحيح، فإن هذا أدعىٰ للتأثير، فتكتب له: يا فلان أوصني فيكتب لك وصيته لك بما يناسب حالك وبما تستفيد منه.

قال: (أوصني) فأوصاه أبو الدرداء بالآتي، قال: (اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء)، (اذكر الله) هذا أمر عام ذكر الله جل وعلا ما معناه؟ هل هو حركة اللسان بالذكر قال العلماء الذكر له مراتب ثلاثة:

أولها: أن يوافق القلب اللسان فيما يتحرك به اللسان.

والثاني: ذكر القلب وهو تدبره وتأمله واعتباره.

والثالث: وهو أدنىٰ المراتب وأقل المراتب أجرا ذكر اللسان فقط.

يعني إذا ذكر المرء الله جل وعلا في قلبه ولسانه فذاك أفضل المراتب، كما كانت حالة الأنبياء والمرسلين وحالة الصديقين.

دائما يوافق القلب اللسان فإذا تحرك اللسان ترك معه القلب.

والمرتبة الثانية أن يتحرك القلب بالذكر -وسيأتي معنىٰ الذكر الواسع- ولو بلا حركة لسان.

والثالث والأخير أن يتحرك اللسان ولو كان القلب مشغولا بما يزاوله أو بما يفكر فيه.

قال العلماء: فإن كان الذكر باللسان مع شُغل القلب فيما مصلحته أعظم، فإن ذكر اللسان مع انشغال القلب فيما مصلحته أعظم أفضل.

مثاله قول عمر ﷺ: إني لأجهز الجيش في الصلاة. يجهز الجيش في الصلاة يعني هو مشغول في الصلاة بتجهيز الجيش، يتلو ويذكر لا الله ويقرأ الفاتحة ويقرأ القرآن ويسبح؛ ولكنه مشغول في الصلاة بما هو أكثر نفعا بما هو أكثر تعديا نفعه للمسلمين وهو تجهيز الجيوش للجهاد، إذا كانت هذه المرتبة فلاشك أنها أفضل من ذكر اللسان مع القلب إذا كان القلب مشغولا بما هو أهم وهذه تكون في حال دون حال.

أذكر الله ذكر الله ما معناه؟ هل هو التسبيح والتهليل والتحميد؟ لا، ذكر الله عام في كل ما يذكرك بالله، كما جاء في أن صفة أولياء الله أنهم إذا رؤوا ذُكر الله؛ يعني إذا رأيتهم ذكرت الله بالقول ذكرن الله بالعمل ذكرت الله بالعلم هذه صفة الصادقين، إذا رؤوا ذكر الله، ليس في رؤيته ذكر للدنيا وإنما هو ذكر لله جل وعلا.

فذكر الله يعم أنواع العبادات، كل العبادات القولية والعملية منها عبادات القلوب أو عبادات اللسان والجوارح كلها ذكر لله جل وعلا تلاوة القرآن ذكر الله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾[الحجر]، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[الزخرف] علىٰ أحد وجهي التفسير، كل نوع من أنواع العبادة فهو ذكر.

إذن أذكر الله بجميع أنواع العبادات، (اذكر الله في السراء) يعني إذا كانت في نعمة فاذكر الله حال تمتعك بالنعمة، وقد قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: أبتلينا بالراء فلم نصبر، وابتلينا بالضراء فصبرنا؛ لأنه إذا نزلت المصيبة إذا نزلت الضراء فالصبر دواعيه كثيرة؛ لكن من يصبر علىٰ ذكر الله في السراء، تتوافد عليك النعم تتوافد عليك أنواع الإحسان، تتوافد عليك أنواع الملذات فتصبر أن لا تغشىٰ خلاف ما أمر الله جل وعلا.

هذا لاشك يحتاج إلىٰ قلب معلق بالذكر، لهذا أوصىٰ أبو الدرداء بقوله: (اذكر الله في السراء) وهذا هو النداء اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء وهذه من مشكاة وصية المصطفىٰ ﷺ «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تحده تجاهك**».

إذن فينبغي لنا أن نتنبه لوضع النعمة، وضع السراء، وضع الحال التي نحن فيه، نغشىٰ النعم منذ الصباح إلىٰ المساء ونحن في النعم، أين ذكر الله؟ أين الشكر؟ الواحد قد يله الشيطان فيظن العبد أنه مستحق لهذه النعمة لما هو عليه، وينسىٰ ذنوبه، ينسىٰ إعراضه، ينسىٰ تقصيره، ينسىٰ فضل الله جل وعلا عليه، وسواء في ذلك حال الأفراد أو حال المجتمعات.

فيجب علىٰ عباد الله جل وعلا فردا كان أو مجتمعا أن يعتنوا بحال السراء أن يعتنوا بحال النعمة، وأن يجعلوا أنفسهم مقيدة بالذكر، لم؟ إذا جاءت الضراء جاء الله جل وعلا بالفرج ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل].

الوصية الثانية من هذه الوصايا (وإذا ذكرتَ الموت فاجعل نفسك كأحدهم) فلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلان مات صلينا علىٰ جنازته، فلان مات حضرت عزاه، أين حركة القلوب بالموت؟ لو صحت القلوب لما جاء ذِكر الموت إلا وقد اضطربت القلوب من خشية الله جل وعلا.

إبراهيم النخعي سيد أهل الكوفة وأعلم من في الكوفة المعروف، إذا مات احد في الكوفة عُرف ذلك في وجهه أياما، حتىٰ ولو لم يعرفه ولو لم يكن من أصحابه، فقيل له في ذلك: يا إبراهيم أنت معلمنا وأنت كذا وكذا ونراك تجزع من الموت. فقال: ما بي من جزع من الموت -أو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، ولكن نزل بأخيكم أمر هو بعده إلىٰ نعيم أو إلىٰ جحيم. فكان يعيش وكان وكان لكن بعد الموت، أين ذهب؟ هل ذهب إلىٰ روضة ونعيم أم ذهب إلىٰ جحيم أم ذهب إلىٰ عذاب؟ مر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بقبرين فقال وأشار إليها: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**».

(إذا ذكرت الموت فاجعل نفسك كأحدهم) يعني أعد العدة لما نزلوا به، هل تدري هل الموت غدا أم بعد غد؟ (إذا ذكرت الموت فاجعل نفسك كأحدهم) إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، هذا به صلاح القلوب.

أما أن يرىٰ المرء في شبابه أو في صحته أنه سيعمر كثيرا، فهذا من غرور الشيطان، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، إذا ذكرت الموت من أصحابك أو من العلماء الماضين أو من الناس الحاليين أو

حضرت عزاء أو مررت مقبرة أو حضرت دفنا أو صليت علىٰ جنازة، فعُدّ نفسك كهذا الذي مات، هذا به تنبت شجرة الإيمان في القلب، ويعظم ثمرها؛ لأنه إذا فارق ذكر الموت القلب كان موتا له.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: لو فارق ذكر الموت قلبي لفسد قلبي. لو حصل أنه فارق فسد القلب، لم؟ لأن أول درجات فساد القلب أن يتعلق بالدنيا وأن ينسىٰ الموت وما بعده والآخرة.

ولهذا تنبه لهذه الوصية (إذا ذكرت الموت فاجعل نفسك كأحدهم) دائما، عد نفسك أنت الذي صُلي عليك، عد نفسك أنت الذي تحت أطباق الثرىٰ، عد نفسك أنت المعزىٰ، وهكذا.

قال في الوصية الثالثة له: (وإذا أشرفت نفسك علىٰ شيء من الدنيا فانظر إلىٰ ماذا يصير)، وإذا أشرفت نفسُك علىٰ جاه فانظر إلىٰ ماذا يصير، وإذا أشرفت نفسك علىٰ مال فانظر إلىٰ ماذا يصير، ما معنىٰ أشرفت نفسك؟ يعني إذا استشرفت وعلت تريد هذا الشيء وتطمع فيه، فانظر إلىٰ ماذا يصير عُده صار إلىٰ زوال، فما الذي حصل.

ألحّ بعض أبناء الإمام أحمد عليه أن يقبل عطية السلطان، وكان الإمام أحمد يقول عطايا السلطان أحب إلي من صلة الإخوان، فألحوا عليه لدين كان عليه دين عظيم فأبىٰ لما كان عليه الأمر في ذلك الزمان في فتنة القول بخلق القرآن إلىٰ آخره، فأبىٰ ذلك فأرسل إليه فردّه رَحِمَهُ اللهُ ورفع درجته، فلما مضت السنة جاءه الفرج وسدد من ضيعة كانت له أو مصدر رزق كان يأتيه، فالتفت إلىٰ أبنائه فقال لهم: ما رأيكم لو قبلنا؟ لقد فرج الله الكرب..

مضت الأشهر ومضت السنة، ولكن لو قبل كان عليه منه، فلما أراد أبناؤه منه أن تستشرف نفسه من هذا الشيء وأن يقبله، وكان هو الإمام الكامل في العلم والعمل رَحِمَهُ اللهُ ورفع درجته، أراد أن يربيهم فقال: أنظروا ماذا صرنا، ماذا لو قبلنا؟ يعني لبقيت المنة مثلا أو لبقي أثرها والأمر الآن ارتفع وتوسع.

(وإذا أشرفت نفسك علىٰ شيء من الدنيا فانظر إلىٰ ماذا يصير)

أشرفت نفسك علىٰ ولاية فانظر إلىٰ ماذا تصير بعد ذلك،

لا تـوازىٰ لـذة الحكـم بمـا   يلقـاه المـرء إذا مـا انعـزل

أو كما قال ابن الوردي في لاميته.

يعني انظر إلىٰ آخر الأمر وتحكم في الأمر منذ بدايته.

فلا تستشرف نفسك علىٰ شيء من الدنيا، ولهذا فعل الصحابة أنهم كانوا يلون الأمور ويعملون بما أوجب الله عليهم، والأمور في أيديهم لا في قلوبهم، فإذا تحقق لهم ما يريدون وإلا لم تتعلق قلوبهم بشيء من الدنيا، (إذا أشرفت نفسك إلىٰ شيء من الدنيا فانظر إلىٰ ماذا يصير) وبالتالي فإنك تتركه أو تعامله إلىٰ ما تكون العاقبة فيه لك.

من وصايا أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يقول في كلامه:

أعوذ بالله من تفرقة القلب. قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: **أن يُجعل لي في كل وادٍ مال**.

وهذا من شاهده في من ابتلاهم الله جل وعلا بأموال؛ بأموال في الرياض وأموال في الشمال وفي الجنوب وفي داخل المملكة وفي خارج المملكة إلىٰ آخره، ابتلاهم الله بتفرقة القلب؛ لأن المال يريد من القلب نصيبه، يريد متابعة، ولهذا قال أبو الدرداء (أعوذ بالله من تفرقة القلب) لأن القلب يتقلب، القلب لا يمكن أن يجتمع علىٰ الذكر وعلىٰ الطاعة وهو له في كل واد نصيب، (قيل: وما تفرقة القلب؟ قال أن يجعل لي في كل واد مال).

وهذه وصية منه للأمة أن المرء القنوع بما ختم من الدنيا يكون ماله قريبا منه وألا يجعل نفسه في تتبع المال بما يؤول عليه بتفرقة القلب، يتابع هذا ويتابع هذا، وكثيرون رأيناهم كانت قلوبهم مجتمعة علىٰ العبادة وعلىٰ التلذذ بالطاعة وعلىٰ رعاية أهليهم وأولادهم، فلما جُعل لهم في كل واد مال تفرّقت قلوبهم وما استلذوا بالحياة أصلا، ولهذا تعوذوا بالله من تفرقة القلب كما قال أبو الدرداء رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه.

عن عون بن عبد الله التابعي المعروف قال قلت لأم الدرداء.

وبالمناسبة أم الدرداء اثنتان كبرىٰ وصغرىٰ، وكانت الصغرىٰ منهما عالمة، والكبرىٰ أيضا كان عندها علم، والصغرىٰ كانت عالمة وكانت فقيهة رحمها الله ورضي عنها، كيف كانت فقيهة؟ يعني نريد أن نقرأ ما وراء الكلمات، كانت فقيهة زوج عالم وفقيه وعامل كانت فقيهة، كيف كانت فقيهة؟ هل كانت تخرج تتبع العلم من هنا وهناك فأين حق الزوج؟ لابد أن يكون وراء ذلك تربية العالم لأهله، وهذا نلحظه في كثيرين، أنهم إذا خاطبوا أهليهم لا يخاطبونهم بالعلم، تجد أن الناس يستفيدون منه العلم وعنده علم كثير، وعنده خير وتوجيه؛ ولكن إذا خالط أهله خالطهم بشأن البيت بالأكل وبالشرب وبحاجة الرجل وأشباه ذلك وبالذهاب والمجيء، لا يسوغ هذا، أولىٰ الناس بأن تعلم وأن تقيهم النار أهلك وإلا فلا تلومن إلا نفسك.

أبو الدرداء كانت زوجه فقيهة ولابد أن ذلك كان من تعليمه لها، ومن تفقيهه لها.

إذا تحدثتَ معهم تحدث معهم بالعلم، تحدث بالفوائد، تحدث معهم بحال الصحابة، تحدث معهم بما سمعت من أهل العلم؛ فإن في ذلك نقلا للعلم ونشرا له فيهم، قد يكونون أول مرة النساء والأهل أول مرة يستثقلون ذلك ثاني مرة عاشر مرة يستثقلون؛ لكن إذا ألفوه لانت قلوبهم، كما أنت تؤثر علىٰ غيرك مرة ومرتين وتؤثر عليهم عشر مرار، فكذلك أثر علىٰ من في بيتك، بالكلام مرة ومرتين وعشر مرار.

أما الذي يدخل ويخرج وهمه حاجة الرجل من أكل وشرب وحاجة الرجل من أهله، فهذا ليس بلائق، ولا يبتغي لأن المرء مسؤول عن رعيته «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

قال: قلت –قال عون بن عبد الله لأم الدرداء-: أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار.

وقال أبو الدرداء أيضا: **تفكر ساعة خير من قيام ليلة**. يعني من كان في مثل فقهه وعمله.

التفكر والاعتبار كانت عبادة أبي الدرداء، أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار.

نقف عند هذه الكلمة في مسألتين:

الأولىٰ أن أم الدرداء -وكانت فقيهة كما ذكرت لكم- جعلت التفكر والاعتبار عبادة، وهذا حق لأن التفكر أمر الله جل وعلا به، وما أمر الله جل وعلا به فامتثاله عبادة، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[آل عمران]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[سبأ:٤٦]، ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[يونس:١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾[الروم:٨]، الآيات في الحض علىٰ التفكر كثيرة والتدبر والتأمل في ملكوت السموات والأرض، لهذا كانت أكثر أبي الدرداء بالتفكر والاعتبار التفكر في آلاء الله ليدله ذلك علىٰ عظمة الله جل وعلا.

الناس ينظرون اليوم إلىٰ السماء كأنها ليست بسماء، ينظرون إلىٰ الإبل وكأنها ليست إبل، ينظرون إلىٰ الجبال لا يتفكرون، والله جل وعلا يقول ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية].

التفكر يورث التذكر، التفكر يورث الخشية، التفكر الحقيقي وصف الله جل وعلا به أولياءه ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[آل عمران:١٩١] وهم أولوا الألباب.

ما أجمل ما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ، كان عظيما في كلامه وفي تربيته وزهده وتعليمه. الحسن البصري ماذا قال؟ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **عاملنا القلوب** -يعني لإصلاحها- **عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر** - لأن التفكر أورث القلوب التذكر تذكر الله جل وعلا تذكر الآخرة تذكر حق الله جل وعلا فرجعنا؛ هذا تماما كلام الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ- **فرجعنا بالتذكر علىٰ التفكر وحركنا القلوب بهما فإذا القلوب لها أسماع وأبصار.**

(عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر فرجعنا بالتذكر علىٰ التفكر وحركنا القلوب بهما فإذا القلوب لها إسماع وأبصار) وهذه يعرفها من جرب.

لهذا ينبغي لك أن تكثر من التفكر تكثر من التفكر في الآخرة، في الجنة، في النار، في الذين ذهبوا، في الموت، في ملكوت السَّمٰوات والأرض، في حق الله جل وعلا، وفي صفاته، تعامل القلوب بالتفكر، فإذا عاملت القلب بالتفكر سيورثك التذكر، إذا تذكرت وعظُم قلبك في خشية الله وتذكره، ارجع مرة أخرىٰ فتفكر فسترىٰ أنه فتح لك باب من التفكر لم يفتح لك قبل ذلك، فارجع بهذا علىٰ هذا فيؤول الأمر إلىٰ قول الحسن (وحركنا القلوب بهما -يعني بالتفكر والتذكر- فإذا القلوب لهذا أسماع وأبصار).

لا أريد أن نكون من أهل الغفلة من الذين يرون خلق الله جل وعلا ولا يتفكرون، يرون السماء ولا يتفكرون، يرون الأرض يرون الموت ولا يتفكرون، يرون آيات الله جل وعلا ولا يتفكرون، وهذا لاشك أنه صفة المعرضين ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

[يوسف:١٠٥] ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾[الأنبياء] الإعراض عن الدين، الإعراض عن التفكر، الإعراض عن الاعتبار، هذا لا شك يجعل القلب تغشاه الدنيا والذنوب.

من كلمات أبي الدرداء ووصاياه لأتباعه بل وللأمة جميعا أنه قال للناس يوما:

ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟ تعلموا فإن العالم والمتعلم شريكان في الأجر.

(ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟) كم بكينا علىٰ ذهاب عدد من العلماء ممن أدركنا ولم نأخذ عنهم أو ممن سمعنا عنهم وودنا لو لقيناهم، الناس يزهدون في العلماء؛ لأنهم بينهم لأنهم أحياء، فإذا ذهبوا تحركت قلوبهم لهم.

(ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟) عندنا الآن العلماء الذين هم صفوة الأمة وفقهاء الأمة وعلماء الأمة في التوحيد والحديث والفقه وعلوم الشريعة نراهم يذهبون ونرىٰ الناس عندهم قليل لم؟ لم الشباب كثير والملتزمون كثير وكثير منهم عنده فراغ ولا يقبلون علىٰ العلماء يتعلمون؟ لم؟ الأمة اليوم بحاجة إلىٰ العلماء الذين يعلّمون ويربون.

يقول أبو الدرداء: (ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟) لاشك أن زمن الصحابة أن العلماء فيه كثير، زمن التابعين يكثر الناس لكن إذا كان عدد العلماء قليلا فإنهم لن يلبوا حاجة الناس.

اليوم كم عدد العلماء نقول: عشرة عشرن ثلاثين خمسين لكن بعد عشر سنوات كم يكون عدد الأمة؟ هنا في هذا البلد قد يقولون ثلاثين أربعين مليون مثلا؟ من الذي سيعلمهم؟ هل البشر الواحد سيستطيع؟ هل العشرة المائة سيستطيعون؟ أين حال الأمة يمينا وشمالا وجنوبا أين حالهم؟ لاشك أنهم، بحاجة إليكم بحاجة إلىٰ من أخذ العلم عن أهله فعلمه.

لهذا أوصي ونفسي وإياكم وأن تبقىٰ هذه الوصية في قلوبكم: تعلموا وخذوا من العلماء اليوم، فإنه سيأتي زمان سترونه بعد عشر سنين أو ثلاثين سنة يبحث الناس عن عالم وقد لا يجدون، من هو متحقق في العلم والقول والعمل، من هو فقيه فيما يقول، انظروا يمينا وشمالا في الدول الأخرىٰ ترون كثيرين يتكلمون في العلم ولكن كلامهم غير منضبط، والأقل النادر الذين كلامهم ينضبط مع الكتاب والسنة لم؟ لأنه ذهب العلماء ولم يتعلم الجهال، لم يتعلم الناس والناس يزداد عددهم.

فخذوا بوصية أبي الدرداء فلقد كان حكيما ناطقا برا صدوقا إن قال: (ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟ اعلموا فإن العالم والمتعلم شريكان في الأجر.)

ولاشك أن هذا مما تنفطر له القلوب إذا تذكرنا قول المصطفىٰ ﷺ: «**إن الله لا ينتزع هذا العلم انتزاعا من صدور العلماء؛ ولكن بموت العلماء حتىٰ إذا لم يُبْق عالما** –وهذه الرواية المعروفة، والرواية الثانية التي هي في البخاري هي المحفوظة– **حتىٰ لم يبق عالم اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» ولاشك أن هذا مفيد، لهذا خذوا عن العلماء.

أيها الشباب، أيها الذين عندهم وقت، عندهم فراغ، عندهم حصافة، عندهم فهم، اتجهوا إلىٰ العلماء وخذوا عنهم واصبروا سنين عددا، فإن الناس ولا شك بحاجة إليكم، في قريتكم، في مدينتكم، في حيكم، الناس بحاجة إلىٰ طلاب العلم أكثر من حاجتهم إلىٰ الأكل والشرب.

من أقوال أبي الدرداء التي فيها وصية:

إني لآمركم بالأمر وما أفعله ولكن لعل الله يأجرني فيه.

العالم قد تتزاحم في حقه الواجبات، فيأمر بأوامر كثيرة ولا يفعلها هو، يأمر بأوامر من المستحبات أو من الواجبات التي زحمها ما هو أوجب منها، فلا يفعله؛ لكن رغبة في الأجر والتوجيه وأن يعمل الناس بذلك وهو مشغول بما هو أعظم أجرا وأكثر مصلحة بالأمة.

قال أبو الدرداء (إني لآمركم بالأمر وما أفعله) نأخذ من هذا أنه لا يلام العالم إذا أمر بشيء ولم يعمله إلا إذا خالف إلىٰ محرم أو ترك واجبا متعينا عليه، قال: (إني لآمركم بالأمر وما أفعله ولكن لعل الله يأجرني فيه.)

الفائدة الأولىٰ -ما ذكرته لك- من أن العالم لا يقول أو طالب العلم لا يقول أنا لا أفعل هذا الشيء لا آمر به لأني لا أفعله.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ وسئل هل: يأمر المرء بالمعروف وينهىٰ عن المنكر وهو واقع فيه؟ قال: نعم يأمر وينهىٰ، ولو لم يأمر وينهىٰ إلا من يفعل لقلّ الآمر والناهي. وإذا أمرت فاجعل نفسك مخاطبا بذلك قبل غيرك.

لهذا نأخذ من هذه الوصية:

أولا أنه في حق بعض الناس قد تتزاحم الواجبات وتتزاحم الفاضل مع ما هو أفضل، فهو يقدم ما يراه أفضل وأعظم أجرا.

والأمر الثاني أنه ينبغي أن لا ينظر إلىٰ العالم في هذه المسألة كغيره؛ بل العالم قد يكون يأمر ولا يفعل لعلة.

لهذا الإمام أحمد ترك مرة صيام الليل بل ترك زمنا قيام الليل قال: استعضنا عن قيام الليل بمذاكرة أبي زرعة، أبي زرعة العالم الحافظ المعروف قدم من الريّ إلىٰ بغداد، فاستعاض الإمام أحمد -عبر بالاستعاضة- قال استعضنا عن قيام الليل بمذاكرة أبي زرعة. لأن هذا مصلحته متعدية وفائدته موقتة؛ لأن أبا زرعة سيذهب، وقام الليل مصلحته قاصرة هو إذا نوىٰ النية الصالحة فالله جل وعلا يأجره علىٰ ذلك.

إذن المرء يقول الخير أينما كان، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: وقد يأتي الشيطان إلىٰ العبد فيقول له لا تتكلم حتىٰ تفعل. فيذهب كثير من الخير بهذه الشبهة، فيأتي ما يعرض للعبد فلا يعمل ثم لا يتكلم فلا ينتشر الخير.

ولهذا ينبغي علينا أن نذكر بالخير في كل مكان، ونخاطب أنفسنا به مع مخاطبتنا لغيرنا، لعله بذلك ينتشر ويكون فيه الصلاح.

من وصايا أبي الدرداء ﷺ أنه كتب مرة إلىٰ مسلمة بن مخلّد فقال له:

سلام عليك، أما بعد:

فإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله فإذا أبغضه الله بغّضه إلى عباده.

(سلام عليك أما بعد: فإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله فإذا أبغضه الله بغضه إلىٰ عباده.) وصية عجيبة وتذكير عظيم.

أول ما في الرسالة قال: (سلام عليك) وهذا من آداب الرسائل، آداب السلف في الرسالة أنهم يقولون في صدر الرسالة: (سلام) بالتنكير لا بالتعريف.

ولهذا مما لا يحسن أن تُبدأ الرسائل بقول المرسل: السلام، وإنما الرسائل تبدأ بـ: سلام عليك سلام، عليك أو عليكم ورحمة الله وبركاته.

تُبدأ بالتنكير وتُختم بالتعريف، قال العلماء أو قال بعض العلماء: هذا مأخوذ مما جاء في سورة مريم، فإن السلام إذا تكرر في مكان أو في مقام مرتين -مقام حديث أو مقام رسالة-، فإنه يكون الأول منكّرا والثاني معرفا.

وفي سورة مريم ذلك في الآية الأولىٰ قال: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾ [مريم]، وفي الآية الثانية قال: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ﴾ [مريم].

إذن هذا من أدب الرسائل

الثانية قوله: (عليك) ولم يقل: (عليكم) لأن هدي السلف والأكثر من حالهم أنهم يخاطبون المفرد بالمفرد بالسلام لا يقولون للمفرد.

علىٰ قوله: (سلام عليك، أما بعد) التسليم علىٰ المفرد يجوز أن يكون بالجمع سلام عليكم بالنظر إلىٰ المخاطَب الملقىٰ عله السلام وإلىٰ من معه من الملائكة، كما قال الفقهاء: ويقول للواحد السلام عليكم له وللملائكة الذين معه. لكن الأفضل أن يقال للواحد السلام عليكَ.

مثل ما جاء في البخاري أنه أول ما أُلقي السلام أن آدم قيل له: اذهب إلىٰ هؤلاء النفر الملائكة فانظر ماذا يحيونك به فإنه تحيتك وتحية ولدك من بعدك، فلما ذهب قيل له: سلام عليكَ ورحمة الله. دلّ هذا علىٰ أن المفرد يخاطب بـ: عليك لا عليكم، فإن عنىٰ هو ةالملائكة فلا بأس.

قال أبو الدرداء في وصيته هذه لمسلمة بن مخلد (إن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله فإذا أبغضه الله بغضه إلىٰ عباده.).

درجتان تُحَرَّك بهما القلوب:

بعض الناس قد لا يتحرك قلبه تماما إذا ذُكر بُغض الله له، ولكن يتحرك إذا ذُكر بغض الناس له، لهذا ينبغي علىٰ المذكِّر والداعية أن يحرِّك الناس بما يصلحهم.

قال أبو الدرداء رحمه الله ورضي عنه (فإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله) وهذا في حق الموحد المؤمن من أعظم ما يكره ويتعد عنه أن يبغضه الله جل وعلا، الناس -أعني المؤمنين- لماذا آمنوا؟ إلا طلبا لرضىٰ الله جل وعلا وإخلاصا له وتوحيدا، فلهذا إذا كان في أمر غضب الله جل وعلا ومقته وأليم عقابه، فلاشك أنه يجب المؤمن الموحد أن يسرع بالابتعاد عنه.

(إذا عمل العبد بمعصية الله أبغضه الله) يعني إذا داوم عليها وأصر، أما إذا كان مذنبا مستغفرا مذنبا تائبا، إذا أذنب رجع، إذا أذنب تاب، إذا أذنب استغفر فإن هذه من علامات السعداء كما جاء في الأثر: ما أصر من استغفر؛ يعني أن العبد إذا استغفر من الذنب ثم غلبته نفسه فعاد إليه بعد زمن، فاستغفر فإنه لا يعد مصرا؛ لأنه حين استغفر كان صادقا في طلب المغفرة.

فإذن هذه الوصية تبين لك أن المعاصي سبب بُغض الله جل وعلا، ولهذا إذا أبغض الله العبد، فإن لبغض الله للعبد أو للعباد آثارا شرعية وآثارا كونية، فإن من الآثار الكونية أن يحرم الرزق كما جاء في الحديث الصحيح أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال: إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه، فهذا من الآثار.

من الآثار أنه يبتلىٰ في نفسه بأمراض لتكون كفارة لأن الله جل وعلا يحب أن يلقاه عبده وليس عليه خطيئة، يحب أن يبتليه في الدنيا حتىٰ لا يعذبه في الآخرة، فإذا كان مقيما علىٰ المعصية فربما ابتلاه في الدنيا بأمراض وشدائد تكون كفارة له، فيكون خيرا له؛ ولكن ينبغي بل يجب علىٰ العبد أن يبتعد أسباب غضب الله عن أسباب العقوبات بأنواعها.

المعاصي لها آثار أيضا شرعية يعني أن يكون العبد غير موفق، فإن العبد إذا عمل بالحسنة وُفق لحسنة مثلها، وإذا عمل بالمعصية خذل بأن يكون عنده معصية أخرىٰ، فلهذا قال من قال من السلف: إذا رأيت العبد يعمل بالحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيته يعمل بالسيئة فاعلم أن لها عنده أخوات.

يعني أن العبد يعمل بالمعصية بطوعه واختياره ولا يستغفر ويقيم عليها يُخذل بأن يزاد عليها، كما قال جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[المطففين]، إذا علم العبد بالمعصية أو بالخطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واسترجع فقدت، وإن أقام نكتت أخرىٰ حتىٰ تكون القلوب قلبا أسودا وقلبا أبيضا.

إذن هذا مما يجب أن نحذره، أيها الإخوان، أيها الأتقياء، أيها المؤمنون بعامة، أيها الحريص علىٰ نفسك إياك والمعصية بجميع أنواعها، وإذا غُلبت علىٰ نفسك وأصابك ما أصاب البشر فاجعل نفسك سريعا تائبا، وأتبع الحسنة السيئة تمحها وأكثر من الصالحات واستعجل بالتوبة والإنابة الاستغفار.

لا تحسنن المعصية في نفسك، تنظر ثم تنظر وتنظر وتنظر إلىٰ أن يفسد القلب، تسمع ثم تسمع وتسمع إلىٰ أن يفسد القلب، تتكلم بالغيبة والنميمة ثم تتكلم وتتكلم إلىٰ أن يفسد القلب، فإن العبد له مع المعصية أحوال يستسهل بها بداية ثم يقع في آخر أمرها، ولهذا نُهي عن النظر مثلا لم؟ لأن النظر وسيلة لمواقعة الكبيرة التي هي الزنا لأن هذا وهذا يليه هذا إلىٰ أن يقع في الكبيرة والعياذ بالله، قال عَلَيْهِ

الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ «**لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولىٰ وليست لك الثانية**» لأن الثانية عليك ليست لك فكيف بمن يقيم علىٰ نظر ونظر ونظر ولا يخشىٰ تقلب القلب إذا ابتليت فأكثر من الاستغفار أكثر من الإنابة أطلب ربك صلاح القلب وصلاح الجوارح فإن من ذلك الخير لك في الآجل والعاجل.

كذلك المعاصي من أعظم آثارها أن تسلب عن العبد معية الله جل وعلا الخاصة، الله جل وعلا مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، والذي يقيم مع المعصية ليس من المتقين، الذي يعصي ويصر عليها ويقيم عليها ليس من المتقين؛ ما خاف الله جل وعلا واتقىٰ عذابه وأليم عقابه واتقىٰ غضبه جل وعلا.

لهذا من يقيم علىٰ المعصية يحرم نفسه أعظم ما ينزغ إليه العبد وهو معية الله جل وعلا، ومعية الله الخاصة لعباده المتقين ما معناها؟ معناها التوفيق أن لا تترك لنفسك، معناها معية النصر معناها معية التأييد، معناها معية الإحسان للعبد وكل مقتضيات العناية بالعبد والإحسان إليه، الجزع من جنس العمل﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل]، ولهذا إياك والمعصية، فإن المعصية كما قال أبو الدرداء سبب لغضب الله جل وعلا وسبب لبغض الله جل وعلا ومقته، وإذا أبغض الله جل وعلا العبد يبغّضه إلىٰ عباده.

وهناك حالتان:

رضىٰ الله جل وعلا عن العبد ومحبته له، فإن الله إذا أحب عبدا نودي في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض الله جل وعلا عبدا من عباده بغضه إلىٰ خلقه.

ولهذا جاء في بعض الآثار الإلهية أن الله جل وعلا قال: إنني أنا الله لا إله إلا أنا ذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية، وإنني أنا الله لا إله إلا أنا إذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت، وإن لعنتي تبلغ السابع من الولد.

الناس يستسهلون بالمعصية حبا للدنيا، والمعصية شؤم كلها فاحذر ثم احذر ثم احذر من الركون إلىٰ الدنيا والتلذذ بالمعاصي، في المباح شيء كثير يغنيك ويجعلك من السعداء، لهذا الذين يسعدون أنفسهم بالطاعات هم أعظم الناس لذة في الدنيا، «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**» الراحة فيها، الذين يسعدون أنفسهم بالمباح هم المتلذذين في الدنيا والسعداء.

قد يحضر لبعض الناس أن اللذة هو السعادة والتلذذ في الدنيا يكون بالمعصية غلط كبير، أولياء الله وأحبابه والصالحون من المتلذذين السعداء بالدنيا وما فيها ولكن بالمباح وهم سعداء فرحون وأهل المعصية شؤمهم عليهم، ومن شؤم المعصية أن يكون صاحبها ذليلا غير قوي في لفظه، غير قوي في عمله، ولهذا قال بعض التابعين في أصحاب المعاصي: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين إنّ ذل المعصية قد علاهم.

تأتي إلىٰ شخص تهابه وله جاه ويكون تفاتحه فيما بينك وبينه بإصلاح معصية فتجده ضعيفا، صاحب المعصية دائما ضعيف؛ ضعيف في لفظه، ضعيف في إقدامه، ضعيف في الشخصية، ضعيف فينفسه، ضعيف فيما يزاول، دائما يكون ضعيفا إلا أن يكون مبتلا بما ابتلاه الله جل وعلا به.

لهذا المعصية في عباد الله سبب للذل، سبب للبغض، سبب لعدم التوفيق.

لهذا نحرص علىٰ هذه الوصية من أبي الدرداء بأن لا نقدم علىٰ المعصية، وإذا غلبت المرءَ نفسُه فعمل بمعصية فليكثر من الاستغفار ولينب إلىٰ التوبة.

آخر كلمة نقلبها وصية من كلمات أبي الدرداء وكلماته كثيرة ووصاياه متعددة ولكن الوقت إنما يسمح بمثل ما ذكرت لك يقول:

لو يعلم الناس ما في الأذان لأخذوه بالدّول رغبة فيه وحرصا عليه.

(لو يعلم الناس ما في الأذان لأخذوه بالدول) يعني بالتناوب؛ هذا يلي هذا، هذا يلي هذا؛ يعني يقول أنت أذن يوم ما أسمحلك أكثر، والناس يتناوبون عليه حرصا عليه.

والأذان فيه فضل عظيم، لو يعلم الناس ما في الأذان ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا كما قال المصطفىٰ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ؛ لكن هذا لمن أخذ الأذان بحقه.

أما المؤذن المفرط في هذه الأمانة فهو متوعد، الأذان أمانة الوقت، ما معنىٰ الأذان؟ أن يؤذن المؤذن بإعلاء ذكر ويُعلن للناس أن الصلاة التي هي كتاب موقوت ابتدأ وقت أدائها، فإذا كان المؤذن يفرّط في هذا الواجب في هذه الأمانة الشرعية التي قال فيها النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ فيما يروىٰ والحديث في إسناده مقال: «**المؤذن مؤتمن**» مؤتمن علىٰ الوقت، مؤتن علىٰ الأوراد، مؤتن علىٰ الحال، المؤذن حاله عظيم في الأجر، ولاشك أن الأجر علىٰ قدر المشقة؛ لأن وضعه ومتابعته للأذان وحرصه عليه والوقت عظيم كان الأجر عظيما لأنه يعلن ذكر الله جل وعلا.

إذن فليس من اللائق بل وليس من الجائز شرعا بل من المحرم أن يفرط المؤذن في أمانته، الأذان أمانة إنما يأخذها من يقوم بهذا الواجب وهذه الأمانة، أما من يؤذن مرة بعد دقيقتين مرة بعد خمس لا يتأكد، مثل ما صار، أتىٰ لا كان من المؤذنين من أدركنا من تقلقه نفسه بالدخول إلىٰ المسجد قبل الأذان بنصف ساعة، خشية من أن يعتريه بعارض فيمنعه من الوصول إلىٰ المسجد، تقلقه نفسه، تقلقه نفسه، حتىٰ يأتي ينتظر الوقت ثم يؤذن.

إذن فالأذان فضله عظيم، لو علم الناس ما في الأذان لو أخذوه بالدول، كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ «**ثم لم يحدوا أن يستهموا عليه لاستهموا**» يعني بالقرعة من شدة فضله «**المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة**».

فلهذا هذه الوصية من أبي الدرداء منها وصية أخرىٰ للمؤذنين بأن يحرصوا علىٰ الوقت، بأن يتقوا الله في هذه الأمانة، الأذان ليس مغنما، الأذان مغرم حسابه شديد في أن تؤذن في الوقت، إذا أذنت قبل الوقت بدقيقتين من يسمعك في بيتنا من المرضىٰ ومن النساء ونحو ذلك، ربما صلىٰ بعدما تبدأ في

الأذان، فيكون دخل في الصلاة قبل الوقت، تؤذن بعد خمس دقائق عشر دقائق حرمت بعض الناس من أداء الصلاة في أولها، ويكون لهم رغبة في ذلك، وفي ذلك حكم كثيرة، لهذا يجب علىٰ المؤذن شرعا أن يتقي الله وأن يعلم أنها أمانة وأنه محاسب علىٰ ذلك، فعليه أن يؤدي الأمانة كما يجب، ليست مغنما ليست المسألة مسألة مكافأة، ومسألة رَزق من بيت المال، المسألة ورع هي أمانة فليتقي الله المؤذن وإذا قام بأمانته مع الإخلاص فنبشره بالأجر العظيم عند الله جل وعلا، «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة».

أسأل الله جل وعلا أن ينوّر قلبي وقلوبكم بهدي كتابه وهدي السنة وهدي السلف الصالح، وأن يجعلنا للمتبعين لما أنزل الله جل وعلا علىٰ رسوله، وأفهمنا إياه صحابة رسول الله ﷺ.

وأسأله سبحانه أن يجعل قلوبنا مطمئنة بالإيمان حريصة عليه وعلىٰ أسبابه، وأن يغفر لنا ذنوبنا اللّٰهمَّ وفقنا ووفق ولاة أمورنا لما تحب وترضىٰ، واجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ.

اللّٰهمَّ نسألك أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويعافىٰ فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالحق والمعروف ويُنهىٰ فيه عن المنكر.

اللّٰهمَّ اغفر لنا ولوالدينا، اللّٰهمَّ نور قلوبنا وقلوب أبنائنا وبناتنا، اللّٰهمَّ واحفظ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، اللّٰهمَّ ويسر لنا كل خير وباعد بيننا وبين كل شر.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.